

## الاتصال الثقافي بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية في عصر المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) (٨١٣ - ٨٣٣ م)

د. عبد الرحمن أحمد سالم

يحاول هذا البحث أن يناقش الجوانب الأساسية لقضية مهمة من قضايا العلاقات الإسلامية البيزنطية في العصور الوسطى ، ألا وهي قضية التبادل الثقافي . وربما كانت أهمية هذا الموضوع راجعة إلى أن الاهتمام بعلاقات الحرب والصدام بين دولة الخلافة والامبراطورية البيزنطية (أو دولة الروم) كاد لا يفسح مجالاً للحديث عن صور العلاقات الأخرى بين الجانبين . ولعل قضية التبادل الثقافي تأتي على رأس تلك العلاقات . وإنه لمماً يثير الدهشة والإعجاب معاً أن العلاقات الثقافية بين دولة الخلافة وامبراطورية الروم استطاعت أن تشق لنفسها طريقاً وسط غبار المعارك . وقد عبرت تلك العلاقات عن نفسها بطرق شتى وسلكت إلى غايتها قنوات متعددة . ولاشك أن تلك العلاقات كان لها مردودها المؤكد على الحياة الثقافية في الجانبين الإسلامي والبيزنطي ؛ وهو ما سنحاول تحديد أبعاده في الصفحات القادمة . وقد يكون من المناسب في مقدمة هذا البحث أن نتناول بأكبر قدر من الإيجاز الوضع السياسي في الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية خلال الفترة موضوع المناقشة ، لنتبع ذلك بالموضوع الأساسي وهو العلاقات الثقافية بين الجانبين .

### أولاً : الوضع السياسي :

استمر الخليفة المأمون (عبد الله بن هارون الرشيد) في منصبه عشرين عاماً تقريباً (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) . وقد تعاقب في نفس الفترة على عرش الامبراطورية البيزنطية ثلاثة أباطرة :

الأول : هوليو الخامس الأرمني Leo V the Armenian الذي حكم من سنة ٨١٣ إلى سنة ٨٢٠ م .

والثاني : هو ميخائيل الثاني Michael II مؤسس الأسرة العمورية في الامبراطورية البيزنطية<sup>(١)</sup> . وقد حكم من سنة ٨٢٠ إلى سنة ٨٢٩ م .

(١) تستمد الأسرة العمورية اسمها من مدينة «عمورية» بآسيا الصغرى ، وهي المدينة التي ينتمي إليها =

أما الثالث : فهو ابنه ثيوفيل Theophilus الذى حكم من سنة ٨٢٩ إلى سنة ٨٤٢م وتعاصر مع المأمون خلال أربع سنوات من حكمه (٨٢٩ - ٨٣٣م) (١) .

وقد كانت الخلافة - خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة - تعاني من وطأة المشاكل الخطيرة التى خلفتها فتنة الأمين والمأمون ، تلك الفتنة التى استمرت أربع سنوات (١٩٤ - ١٩٨هـ / ٨١٠ - ٨١٣م) وأحدثت شرخا عميقا فى تماسك الجبهة الداخلية للخلافة . ورغم أن المأمون انتصر فى الحرب ضد أخيه وأصبح خليفة المسلمين بلا منازع فقد كان عليه أن يواجه عبئا ثقيلا يتمثل فى علاج ما ترتب على تلك الأحداث المؤلمة من آثار . ولا يعيننا هنا أن نتتبع تلك الآثار ولا أسلوب المأمون فى علاجها ، ولكن الذى يعيننا من ذلك فى هذا السياق شئ واحد هو توقف الأنشطة العسكرية المباشرة للمسلمين على الجبهة البيزنطية لمدة عشرين عاما تقريبا (١٩٤ - ٢١٥هـ / ٨١٠ - ٨٣٠م) (٢) .

وقد كانت الامبراطورية البيزنطية أيضا خلال تلك الفترة تثنُّ تحت وطأة المشاكل الداخلية والخارجية . وهذا يفسر السبب الذى جعل الامبراطورية لا تستغل فرصة الأزمات الداخلية فى الخلافة بتوجيه ضربة عسكرية على الحدود . فالامبراطور ليو الخامس كان يواجه على الصعيد الخارجى مشكلة البلغار ؛ وعلى الصعيد الداخلى مشكلة اللاأيقونية Iconoclasm . أما بخصوص المشكلة الأولى فقد تمكن ليو بعد جهد من أن يعقد معاهدة صلح مع القائد البلغارى عمر تاج مدتها ثلاثون سنة ، وكان ذلك فى عام ٨١٥م (٣) . أما بخصوص المشكلة الثانية فقد كان الأمر أكثر تعقيدا ؛ ذلك أن مشكلة

= أباطرة هذه الأسرة . وهذا هو السبب الذى جعل الخليفة المعتصم يختارها هدفا لغزوه فى سنة ٣٢٣هـ (٨٣٨م) عندما أراد أن يؤدب الامبراطور ثيوفيل أحد أعضاء هذه الأسرة .

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأباطرة البيزنطيين الثلاثة الذين تعاصروا مع المأمون ارجع إلى :  
- A . A . Vasiliev , History of the Byzantine Empire , p . 272 , G . Ostrogorsky , History of the Byzantine State , pp . 200 - 206 .

(٢) تجدر الإشارة إلى أنه قد حدثت بعض الغارات الإسلامية على الحدود البيزنطية من سنة ١٩٤ إلى سنة ١٩٧هـ على يد ثابت بن نصر حاكم إقليم الثغور . ولكن الواضح أن هذه الغارات كانت ذات طبيعة محدودة جدا ، وأغلب الظن أنها تمت بمبادرة شخصية من ثابت بن نصر ، أى دون إذن الأمين . ثم توقفت الأنشطة بصورة شبه كاملة على الجبهة البيزنطية حتى استأنفها المأمون سنة ٢١٥هـ . انظر حول ذلك : تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ؛ ص ٥٣٧ ؛ وتاريخ الطبرى ، ج ٨ . ص ٦٢٣ .

(٣) S . Runciman , A History of the First Bulgarian Empire. p.72 .

اللايقونية لم تستنفذ جهد ليو الخامس فحسب ، بل استنفدت كذلك جهد خليفته ميخائيل الثانى وثيوفيل . وسوف أناقش مشكلة اللايقونية فيما بعد ، ليس لذاتها ، بل فيما يتصل بعلاقتها بالإسلام ، وعلى الأخص بمذهب المعتزلة الذى مثل المذهب الدينى الرسمى للخلافة فى تلك الفترة . وكفى هنا أن نشير إلى أن اللايقونية - فى طورها الثانى الذى بدأ سنة ٨١٥م<sup>(١)</sup> - كانت من أكثر الموضوعات سخونة فى امبراطورية الروم فى الفترة التى نناقشها الآن ، وكانت لها انعكاساتها على العلاقات الثقافية بين الامبراطورية والخلافة .

ومن هنا يمكن القول بأن ميخائيل الثانى كان يواجه فى الداخل مشكلة الآثار الخطيرة المترتبة على سياسته اللايقونية . وقد تمثل ذلك على وجه الأخص فى ثورة توماس الصقلي Thomas the Slav ، تلك الثورة التى رفعت شعار الأرثوذكسية ضد مذهب اللايقونية واستطاعت أن تضم تحت لوائها أتباعا عديدين من أجناس مختلفة ، بل إنها تلقت فى بعض مراحلها تأييد الخليفة المأمون . وهكذا مثلت هذه الثورة تهديدا داخليا وخارجيا فى وقت واحد . والواقع أن تأييد المأمون لتوماس لم يكن متسقا مع معتقداته المعتزلية التى تشابهت فى طبيعتها مع اللايقونية فى دولة الروم كما سنوضح بعد قليل . ولهذا فإن تأييد المأمون لثورة توماس ينبغى أن يفسر من زوايا سياسية بحتة<sup>(٢)</sup> . ولكن باستثناء تأييد المأمون لثورة توماس - وهو التأييد الذى توج بالفشل - فإن حكم ميخائيل الثانى كله خلا تقريبا من أى توترات أو مواجهات على الجبهة الإسلامية .

أما حكم الامبراطور ثيوفيل فقد كان مختلفا تماما . لقد شهد هذا الحكم استئناف المواجهات العسكرية بين الامبراطورية والخلافة على مستوى فى غاية الخطورة . والحقيقة أن المأمون هو الذى كان مسئولا عن إثارة هذه المواجهات بعد أن شعر أن مشاكله الداخلية

---

(١) بدأ الطور الأول للحركة اللايقونية فى سنة ٧٢٦م على أرجح الأقوال ، على يد الثالث مؤسس الأسرة الأيسورية فى الامبراطورية البيزنطية ، وانتهى فى سنة ٧٨٠م بوفاة ليو الرابع . أما الطور الثانى للحركة فقد بدأ فى سنة ٨١٥م كما أشرنا ، وانتهى فى سنة ٨٤٣م فى أوائل عهد الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧م) آخر أباطرة الأسرة العمورية . انظر حول ذلك :

- Cyril Mango, Historical Introduction, published in (Iconoclasm), pp. 1 - 6 .

(٢) تراجع تفصيلات هذه الثورة فى :

- P . Lemerle, "Thomas le Slave", in "Travaux et Memoires", vol . I (1965), pp . 255 - 297 .

الضاغطة قد بدأت تتلاشى أو تخفُ حدتها . ومن هنا فقد أخذ يتلمس الاتهامات لثيوفيل حتى يبرر هجومه عليه . فقد أخذه بأنه استقبل في بيزنطة عددا كبيرا من طائفة الخُرْمية الهاربين من أرض الخلافة ووطنهم في نواحي الامبراطورية ليستغلهم في هجماته ضد الخلافة<sup>(١)</sup> . ولكن هذه التهمة لم تكن إلا ذريعة لتتيح للمأمون أن ينفذ مخططاته العسكرية ضد الإمبراطورية البيزنطية . وهكذا شغل المأمون نفسه في السنوات الثلاثة الأخيرة من حكمه بمجموعة من العمليات العسكرية الخطيرة والناجحة على الجبهة الشرقية . ورغم أن نتائج هذه العمليات لم تكن حاسمة فإنه يبدو أن المأمون كان يخطط من ورائها لمشروع خطير ضد القسطنطينية ذاتها . ولكن وفاته المفاجئة بالقرب من طرسوس في سنة (٢١٨هـ - ٨٣٣م) - وهو في طريقه لغزو الروم - أجهضت هذا المشروع .

## ثانياً : العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة في عصر المأمون :

### نمهيّد :

قد يكون من الضروري أن نمهد لهذا الموضوع بمقدمة أساسية تتناول باختصار تطور العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة قبل حكم المأمون ، وذلك حتى تتضح لنا الملامح الأساسية لتلك العلاقات في عصر المأمون :

ولعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن التأثير الثقافي البيزنطي على الحياة العربية يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام . ولاشك أن إمارة الغساسنة بالشام لعبت دورا مهما في هذا التأثير ؛ فقد كانت حلقة وصل بين الثقافة البيزنطية والبيئة العربية ، كما مثل التجار العرب وسيلة من وسائل هذا الوصل الثقافي . وهكذا يمكن القول إنه بظهور الإسلام لم تكن الثقافة البيزنطية غريبة تماما على البيئة الإسلامية . وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب لم يغير المسلمون لغة الدواوين في البلاد المفتوحة إلى اللغة العربية . وهكذا ظلت اللغة اليونانية في الشام ومصر لغة التعامل في دواوين الحكومة ، كما كان الشأن بالنسبة للغة الفارسية في البلاد التي كانت خاضعة لحكم آل ساسان . وقد تطلب ذلك بالطبع أن تبقى الخلافة على الموظفين الذين كانوا يمارسون أعمالهم في تلك البلاد قبل ظهور الإسلام .

ولكن التأثير الثقافي البيزنطي على دولة الخلافة شهد تحولا ملحوظا في عهد الخليفة

C F., S. Ameer Ali , A short History of the Saracens , p. 272 .

(١)

معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) ؛ فقد استخدم معاوية على شئونه المالية المسيحي السرياني سرجيوس المشهور في مصادرها العربية باسم سرجون بن منصور<sup>(١)</sup> ، وهو والد يوحنا الدمشقي على الأرجح<sup>(٢)</sup> . وهكذا قام سرجيوس بدور وزير المالية للدولة الإسلامية كلها<sup>(٣)</sup> . صحيح أن رعايا الخلافة من المسيحيين السريان لم يكونوا بيزنطيين أو يونانيين الأصل ، ولكنهم مع ذلك تمثلوا كثيرا من الثقافة اليونانية والبيزنطية فأصبحوا بيزنطيين حضارة وصاروا أداة جيدة لنقل ثقافة العالم البيزنطي إلى دولة الخلافة . ومما هو بعيد الدلالة في هذا المقام أن بعض مصادرها التاريخية تطلق على سرجون هذا لقب «الرومي» . فيقول الطبري مثلا في معرض حديثه عن معاوية : «وكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي»<sup>(٤)</sup> . وهكذا كانت الثقافة اليونانية البيزنطية التي تمتع بها سرجون بن منصور السرياني أساسا كافيا جعل بعض المؤرخين العرب يعدونه واحدا من الروم . وقد حذا الخلفاء الأمويون اللاحقون حذو معاوية وعينوا هؤلاء السريان أصحاب الثقافة الهيلينية في المناصب الحكومية العليا . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أبرز رجال اللاهوت والمدافعين عن الاتجاه الأرثوذكسي خلال الطور الأول للحركة الأيقونية كان هو يوحنا الدمشقي الذي أشرنا إليه الآن . وقد تولى يوحنا منصبا حكوميا رفيعا في بلاط الأمويين<sup>(٥)</sup> ، وكان صاحب تأثير فكري في البيئة الإسلامية مما دفع البعض إلى أن يزعم أن تأثيره هذا أثر في تكوين المذهب الاعتزالي في مراحل المبكرة<sup>(٦)</sup> .

وإذا كان المسيحيون السريان من رعايا الخلافة قد مثلوا قناة مهمة لنقل الثقافة البيزنطية إلى المسلمين في العصر الأموي فقد مثلت المحاولة التي تبناها خالد بن يزيد بن معاوية في مجال الترجمة قناة أخرى مهمة في هذا الصدد . وقد كان خالد مهتما في الأساس بمجال

(١) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٣٠ ، والكامل لابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١١ .

(٢) انظر : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، تأليف ديلاسي أوليري ، ترجمة د . تمام حسان ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٤) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٣٠ . وانظر أيضا : الكامل لابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١١ .

(٥) يرجح أوليري أنه عمل مستشارا أول للخليفة هشام بن عبد الملك . انظر : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، ص ٢١٢ .

(٦) راجع : الحسن البصري لإحسان عباس ، ص ١٦٥ .

العلوم فى التراث اليونانى وخاصة علم الكيمياء ، وكان يسمى حكيم آل مروان<sup>(١)</sup> . يروى ابن النديم أن خالداً «أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة»<sup>(٢)</sup> .

ويضاف إلى ذلك أن الأمويين لم يترددوا فى طلب المساعدة الفنية المباشرة من البيزنطيين عندما كانوا يرون ذلك ضروريا . وتروى مصادرها فى هذا السياق أن الوليد بن عبد الملك عندما شرع فى بناء مسجد دمشق أرسل إلى امبراطور الروم<sup>(٣)</sup> يطلب عونهُ فى هذا المشروع ، فأرسل إليه الامبراطور مائتين من صنّاع الروم المهرة<sup>(٤)</sup> . كما طلب الوليد أيضا مساعدة الامبراطور عندما كان بصدد توسيع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعانه الامبراطور «بمائة عامل ، وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملا ... فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبد العزيز»<sup>(٥)</sup> وقد كان عمر واليا على المدينة فى ذلك الوقت .

ولم يتوقف هذا التعاون الحضارى بين البيزنطيين والمسلمين بمجيئ العباسيين ، بل إن دائرة هذا التعاون قد اتسعت . وقد يبدو ذلك غريبا لأنه من المعروف أن التأثير الفارسى على الأسرة العباسية كان قويا متعدد المظاهر . ولعل من بين مظاهره نقل عاصمة الخلافة من

(١) الفهرست لابن النديم ، ص ٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الأباطرة البيزنطيون الذين عاصروا الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٤ م) هم : جستنيان الثانى (٧٠٥ - ٧١١ م) ، وفيليبكوس (٧١١ - ٧١٣ م) ، وأناستاسيوس الثانى (٧١٣ - ٧١٥ م) . ولما كانت مشروعات الوليد المعمارية قد بدأت فى أوائل حكمه فإن الامبراطور المقصود هنا هو جستنيان الثانى .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٩ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ . ويذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه «الذخائر والتحف» ، ص ١٠ أن ملك الروم أرسل إليه ألف فاعل . فقلعه أرسل إليه هؤلاء الفعلة بالإضافة إلى الصنّاع المهرة .

(٥) تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٣٦ . ويروى أيضا أن الوليد طلب المعونة الفنية من امبراطور الروم عندما أراد أن يزين المسجد الأقصى بالفسيفساء . يراجع فى ذلك :

- A . A . Vasiliev, (Byzantium and Islam), published in : Byzantium : An Introduction to East Roman civilization, pp . 308 - 325 .

سوريا إلى العراق معقل الثقافة الفارسية . ولكن العباسيين مع ذلك لم يسمحوا لهذا النفوذ الفارسي أن يعزلهم عن التأثيرات الثقافية الأخرى للحضارات المعاصرة لهم وفي مقدمتها حضارة البيزنطيين . وقد يبدو مدهشا حقا أن هذا الموقف الثقافي الليبرالي قد حظى بكل التشجيع من أسرة البرامكة ، أقوى الأسر الفارسية نفوذا خلال الخمسين عاما الأولى من الخلافة العباسية<sup>(١)</sup> . والحق أن هذا الموقف الليبرالي هو الذي أضاف للحضارة العباسية أبعادها الرحبة ومكّنها من أن تستوعب المكونات المختلفة للثقافات المعاصرة ، ثم أن تقدم بعد وقت غير بعيد ثقافتها الخاصة المتميزة .

أما فيما يتعلق بموقف العباسيين تجاه الحضارة البيزنطية قبل حكم المأمون فإن الشخصيتين اللتين كان لهما إسهام بارز في محاولة تقديم بعض جوانب هذه الحضارة للمسلمين هما الخليفة الثانی والخليفة الخامس : أي أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد . ويرجع للمنصور الفضل في أنه أمر بترجمة الأعمال اليونانية المهمة المتصلة بمجالى اهتمامه الرئيسيين وهما الطب والفلك<sup>(٢)</sup> . كما أن المنصور كان أول من قدم إلى البلاط العباسي رأس الأسرة السريانية النسطورية الشهيرة وهو جورجيس بن بختيشوع أكبر أطباء عصره<sup>(٣)</sup> . وعن طريق جورجيس هذا ثم ذريته من بعده تعرف المسلمون على جوانب مهمة من إنجازات العقل اليوناني في مجال الطب . صحيح أن هذه المجالات العلمية التي اهتم بها المنصور هي في الواقع مجالات يونانية كلاسيكية وليست مجالات بيزنطية بالمعنى المحدد للكلمة ، ولكن لا ينبغي أن يفوتنا هنا أن البيزنطيين كانوا يعتبرون أنفسهم في ذلك الوقت ورثة التراث اليوناني وسدنته ، وكانوا يرون أن من يهتم بهذا التراث إنما يهتم بجزء لا يتجزأ من حضارتهم وموروثاتهم .

أما هارون الرشيد فقد مضى خطوات أبعد من جده المنصور في هذا الاتجاه . ومما ينبغي ملاحظته هنا أن الأسرة السريانية النسطورية التي مثلها جورجيس بن بختيشوع في عهد

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ، وانظر أيضاً : مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب لأوليري ، ص ٢٢٨ .

(٢) لمزيد من التفصيل حول اهتمامات المنصور العلمية ، ورعايته لحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية

راجع : تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ، ج ٣ ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) راجع ترجمته في إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ، ص ١٠٩ - ١١١ .

المنصور قد استمرت وازدهرت في عهد الرشيد وأصبحت آنذاك ممثلة في عميدها الطبيب الشهير جبريل<sup>(١)</sup> . وقد بقيت هذه الأسرة في عهد الرشيد محافظه على تقاليدها الأولى في رعاية واحتضان الطب اليوناني . ولهذا فليس من الغريب أن نقرأ أن جبريل كان يطلق على الطبيب اليوناني الذائع الصيت جالينوس لقب «أستاذي الأكبر» . ومما يروى في هذا الصدد أنه سأل الرشيد - وهو بصحبته في إحدى غزواته ضد الروم - أن يسمح له بزيارة قبر جالينوس لأن هذه الزيارة في تقديره كان من شأنها أن تميزه عن أقرانه<sup>(٢)</sup> . وهكذا استمرت هذه الأسرة في القيام بدورها المتميز في ترجمة الأعمال الطبية اليونانية إلى العربية في عصر الرشيد . ومما ينبغي ذكره في هذا السياق أن بعض المصادر اليونانية التي ترجمت إلى العربية قد استولى عليها المسلمون من مدينتي أنقرة وعمورية خلال بعض الغزوات التي قام بها الرشيد ضد البيزنطيين ، وقد كانت هذه المصادر في جملتها طبية<sup>(٣)</sup> .

ولابد هنا من طرح بعض الملاحظات المتصلة بالعلاقات الثقافية بين المسلمين والبيزنطيين قبل حكم المأمون :

١ - وأولى هذه الملاحظات أن الخلافة كانت خلال هذه الفترة - بصفة عامة - تتجه إلى ناحية الأخذ من الثقافات الأخرى واستيعاب عناصر هذه الثقافات لتحويلها بعد ذلك إلى جزء من نسيجها الثقافي الخاص . وقد كان من أبرز هذه الثقافات الثقافة الفارسية والثقافة البيزنطية .

٢ - والملاحظة الثانية أن محاولات الأخذ من الثقافات الأخرى قبل عصر المأمون كانت متقطعة وغير منتظمة . لقد كانت معتمدة أساساً على الميول الشخصية والأنشطة الفردية لبعض الخلفاء أو الدارسين أو كبار الشخصيات في الدولة .

(١) هو جبريل بن بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع . راجع ترجمته في إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ، ص ٩٣ - ١٠٢ ؛ وفي عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٦٢ . وحول هذه الأسرة بصفة عامة ، وصلة جبريل بالرشيد بصفة خاصة أرجع إلى مادة «بختيشوع» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم بروكلمان ، ج ٦ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ، ص ٩٥ - ٩٦ .

(٣) يرجع في ذلك إلى ترجمة يوحنا بن ماسويه في : عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٢٤ . وقد اضطلع أيضاً يوحنا بن ماسويه بدور بارز في الترجمة في عهد الرشيد وخلفائه .



٣ - والملاحظة الثالثة أن الاتصال الثقافي خلال تلك الفترة كان يدور - بصفة رئيسية - حول النواحي العلمية من التراث اليوناني كالكيمياء والفلك والهندسة والطب .

### عصر المأمون :

بدأت العلاقات الثقافية بين المسلمين والبيزنطيين تأخذ منعطفا حاسما في عصر المأمون . وقد كان هذا التحول راجعا إلى عاملين أساسيين :

١ - أما أولهما فهو أن الأنشطة الثقافية السابقة - وخاصة في العصرين الأموي وأوائل العباسي - بدأت تقدم حصادها في عصر المأمون .

٢ - وأما ثانيهما فيكمن في الخصائص الثقافية النادرة التي تمتعت بها شخصية المأمون . وقد لا نكون مبالغين إذا عددنا المأمون واحدا من أكثر الخلفاء تفتحاً وأصاله فكرية على امتداد التاريخ الاسلامي . ولولا موقفه المتشدد في قضية خلق القرآن وامتحانه الناس في عقائدهم لأصبح هذا الخليفة مثالا لا نظير له في التاريخ الوسيط لرحابة الأفق والإيمان بأن الفكر الإنساني لا يعرف الحدود . ومما أثر عنه قوله : « لا نزهة أكثر من النظر في عقول الرجال »<sup>(١)</sup> . ولعل هذا يشرح لماذا كان المأمون حريصا على أن يدير حوارات فكرية مع علماء متنوعين يمثلون ثقافات مختلفة<sup>(٢)</sup> .

وسوف ندير حديثنا في الصفحات التالية حول قضيتين أساسيتين من قضايا العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة في عصر المأمون : أولا هما تتعلق بأهم جوانب تلك العلاقات ؛ والثانية تتعلق بالقنوات الرئيسية التي تبودلت تلك العلاقات من خلالها .

### ١ - أهم جوانب العلاقات الثقافية بين الخلافة وبيزنطة في عصر

### المأمون :

الواضح أن الفلسفة جاءت على رأس الموضوعات التي أثارت اهتمام المسلمين بالتراث البيزنطي (أو بعبارة أدق : بالتراث اليوناني الذي ادعاه البيزنطيون) ابتداء من تلك الفترة . ولعلنا لاحظنا فيما مضى أن اهتمام المسلمين بالتراث اليوناني في العصر الأموي والعباسي حتى خلافة المأمون كاد ينحصر في المجالات العلمية الخالصة كالطب والفلك والكيمياء

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص ٣٧٨ .

(٢) انظر مثلا : تاريخ الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٧٧ ، وأصول الدين للبغدادى ، ص ٣٠٩ .

والهندسة . وكان المسلمون يجدون حرجا شديدا فى اقتحام مجالات فلسفية دخيلة يحسون أنها قد تكون غريبة على روح عقيدتهم وثقافتهم . ومع ذلك يمكن القول إن ما ترجمه المسلمون فى مجال الأعمال العلمية اليونانية هيأهم ذهنيا لقبول الأعمال الفلسفية لأن الفلسفة لم تكن منبثة الصلة بهذه العلوم . وهكذا شهد عصر المأمون ذلك التحول فى مجال الاهتمامات الفكرية بالتراث اليونانى البيزنطى .

وتروى بعض مصادرنا قصة طريفة فى محاولة منها لتفسير سر اهتمام المأمون بالفلسفة اليونانية ؛ فهى تذكر أن المأمون رأى أرسطو فى أحد أحلامه فطرح عليه سؤالا حول العلاقة بين العقل والدين . وقد أكد أرسطو للمأمون فى إجابته أنه لا يوجد أى تناقض بين الاثنين بل إن العقل يؤكد الدين ويدعمه . وقد كان هذا الحلم حافزا للمأمون - كما تذكر الرواية - فى ترجمته للأعمال اليونانية الفلسفية<sup>(١)</sup> . ومع أنه ليس من اليسير علينا أن نعتقد أن اهتمام المأمون بترجمة الأعمال الفلسفية من اليونانية إلى العربية كان استجابة لحلم رآه فإنه من المؤكد أن هذا الحلم - لو صحت الرواية - كان انعكاسا لاهتمامات سابقة وقوية بالفكر الفلسفى اليونانى ، فالمعروف أن أحلام الإنسان مستمدة فى الغالب مما يسيطر عليه من أفكار ومشاعر ذهنية . فقد كانت الفلسفة إذن تمثل بعض اهتمامات المأمون الفكرية فى ذلك الوقت . والواقع أن هذا الحلم الذى رويناه الآن يعكس هدفا من أهم الأهداف وراء دراسة المفكرين المسلمين للفلسفة اليونانية فى تلك الفترة . لقد تمثل هذا الهدف فى العمل على التوفيق بين العقل والنقل وفى تطبيق الأساليب الفلسفية فى مجال الجدل الدينى .

فليس صحيحا إذن ما يدعيه «ديلاسى أو ليرى» من أن شغف المأمون بالفكر الفلسفى اليونانى كان يمثل نوعا من التحلل الدينى ، فهو يذكر أن المأمون «طبق القواعد الفلسفية على العقائد الإسلامية ، ولاشك أن آخرين قد فعلوا نفس الشئ ، ومنهم أتقياء صالحون ،

(١) الفهرست لابن النديم ، ص ٢٤٣ . ويروى ابن أبى أصيبعة أن المأمون رأى فى منامه شيئا بهى الشكل يخطب على منبر ويقول : أنا أرسطو طاليس ! فلما انتبه المأمون من منامه سأل عن أرسطو طاليس ، ف قيل له : رجل حكيم من اليونانيين ! فأحضر حنين بن إسحاق وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية . ومما يرويه ابن أبى أصيبعة أيضا أن المأمون عندما رأى أرسطو طاليس فى منامه سأله عن الحسن ، ماهو ؟ فأجابه . «فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب» . طبقات الأطباء . ج ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ . والملاحظ مما يرويه ابن أبى أصيبعة أنه يحاول أن يجعلنا نعتقد أن المأمون لم يسمع عن أرسطو قبل هذا المنام ! وهذا أبعد ما يكون عن التصور .

ولكنهم كانوا حريصين على الاحتفاظ بطلاء خارجي حين تناولوا الأمور الدينية بكل احترام، وليس كذلك المأمون<sup>(١)</sup>. والحق أنه لا يوجد شاهد واحد يشير إلى أن المأمون لم يكن يتناول المسائل الدينية بكل احترام، بل إن القضية التي أدانته من أجلها كثير من المفكرين، وهي قضية خلق القرآن، لم تكن تعكس تحللاً دينياً بل كانت تعبر عن حرص المأمون البالغ على أن يحتفظ بمفهوم التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى خالياً من أى شائبة. ولكن المأمون أخطأ في محاولة فرض وجهة نظره بسيف السلطان.

يمكننا أن نقول إذن - على عكس ما يدعيه أوليري - إن اهتمام المأمون بدراسة الفكر الفلسفي اليوناني كان يهدف إلى الدفاع عن الدين عن طريق درء التعارض بين المنقول والمعقول. ولعل هذا الهدف ذاته هو الذي جعل المسلمين - ابتداءً من تلك الفترة - يوجهون اهتماماً ملحوظاً لدراسة المنطق اليوناني بصفة عامة والقياس المنطقي بصفة خاصة. وهذا الفريق الذي اهتم بهذا الجانب من التراث العقلي اليوناني هو نفسه الذي وضع الأسس المنطقية لعلم الكلام الإسلامي وطبق قواعد منطق أرسطو في الدفاع عن كثير من قضاياها. وما من شك في أن هذا يشرح السبب الذي جعل أرسطو يحتل مكانه متميزة بين الكثيرين من فلاسفة الإسلام، فعرف لديهم بلقب «المعلم الأول»<sup>(٢)</sup>. أما على مستوى المدارس الكلامية الإسلامية فقد وجه «المعتزلة» جهداً كبيراً لدراسة منطق أرسطو محاولةً منهم لتوظيفه في ميادين الحجاج العقلي دفاعاً عن العقيدة الإسلامية. وكان من أكبر رجال المعتزلة في ذلك الوقت، الذين تبنا ذلك المنهج، المأمون نفسه. كما يمكن القول إن إبراهيم ابن سيار النظام وأبا الهذيل العلاف كانا من أبرز أعلام المعتزلة الذين مثلوا هذه المدرسة أصدق تمثيل في تلك الفترة.

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: هل كان الهدف الديني في دراسة الفلسفة اليونانية والمنطق هو الهدف الوحيد وراء اهتمام المسلمين بهذا اللون من التراث اليوناني؟

الواضح أنه لا يمكن الزعم بذلك؛ فقد وجد مفكرون آخرون في المجتمع الإسلامي كانوا حريصين على أن يشغلوا أنفسهم بهذا اللون من الدراسة بغرض المعرفة المجردة حتى لو

(١) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٤٤.

(٢) راجع مادة «أرسطو طاليس» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم فالنزر، ج ٢، ص

اصطدمت هذه المعرفة المجردة في بعض نواحيها مع الإسلام ذاته ، ويعلق أحد المؤرخين المتأخرين - وهو المقرئزي - على هذا الاتجاه الذي تبناه بعض المفكرين في المجتمع الإسلامي بقوله : «كان المأمون عبد الله بن هارون سابع خلفاء بني العباس ببغداد لما شغف بالعلوم القديمة بعث إلى بلاد الروم من عرب له كتب الفلاسفة وأتاه بها في أعوام بضعة عشرة سنة ومائتين من سني الهجرة ، فانتشرت مذاهب الفلاسفة في الناس واشتهرت كتبهم بعامة الأمصار ، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها وأكثروا من النظر فيها والتصفح لها ، فانجر على الإسلام وأهله من علوم الفلاسفة مالا يوصف من البلاء والمحنة في الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفرا إلى كفرهم» (١) . فالواضح من هذا النص أن المقرئزي لم يعتبر دراسة الفلسفة اليونانية والمنطق سلاحا في يد فرقة كالمعتزلة تنافح به عن الدين وتحاول التوفيق بين العقل والنقل بل اعتبرها باب فساد لكثير من الفرق الضالة استفحل به ضلالهم وكفرهم ! ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن الاتجاه العقلي البحث في دراسة الفلسفة اليونانية سيظهر بوضوح في مرحلة تالية لتلك الفترة التي نعالجها الآن .

وإذا كانت دراسة الفلسفة اليونانية قد مثلت مجالا تباينت فيه وجهات نظر المدارس الإسلامية المختلفة : ما بين تقليدية معارضة وتجديدية مؤيدة ، فإن الطب - مع أنه كان يعتبر أحد علوم الحكمة التي اتسعت لها عباءة الفلسفة - لم يلق معارضة بين فئات المجتمع الإسلامي على اختلافها . وقد بدأت ترجمة الأعمال الطبية - كما أشرنا إلى ذلك آنفا - في خلافة أبي جعفر المنصور ، ولكن نطاقها اتسع في عهد المأمون ، بل إن بعض الكتب التي ترجمت قبل ذلك أعيدت ترجمتها في هذه الفترة الأخيرة (٢) . ومما يلفت النظر أن الإمام بالطب اليوناني أصبح اتجاها عاما ليس لدى المتخصصين فحسب بل لدى المفكرين المسلمين بصفة عامة . ولو تصفحنا أعمال مشاهير الكتاب في تلك الفترة ، كالجاحظ وابن قتيبة ، لوجدنا فيها مصداقا لما نقول . وربما جاز لنا أن ندعى أن أطباء يونانيين من أمثال جالينوس Galen وأبو قراط Hippocrates كانوا يتمتعون بشهرة في العالم الإسلامي قد تفوق شهرتهم في العالم البيزنطي .

(١) الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ .

C. F., Philip Hitti , History of the Arabs , p . 311 .

(٢)

وقد ظلت أسرة «بختيشوع»<sup>(١)</sup> - كما كان شأنها منذ خلافة المنصور - تحتل مكان الريادة في الطب الإغريقي خلال الفترة موضوع الدراسة . وقد كان يمثلها في عصر المأمون جبريل بن بختيشوع بن جورجيس ، ثم ابنه بختيشوع بن جبريل<sup>(٢)</sup> . والجدير بالذكر هنا أن هذه الأسرة السريانية النسطورية تنتمي إلى مدرسة جند يسابور الطبية التي أنشأها الامبراطور الفارسي كسرى أنوشروان في حوالي ٥٥٥م لتكون مركزا لدراسة الطب الإغريقي<sup>(٣)</sup> . واستطاع النساطرة الذين تعرضوا للاضطهاد الديني في الامبراطورية البيزنطية أن يجدوا لهم ملاذا في جند يسابور وغيرها من مراكز الثقافة في الامبراطورية الفارسية ، فازدهرت دراسة الطب الإغريقي على أيديهم<sup>(٤)</sup> . وبعد الفتح الإسلامي خضعت هذه المراكز ، بكل تقاليدها العلمية الراسخة ، لسلطان الدولة الإسلامية . وقد استطاع العباسيون أن يستثمروا مدرسة جند يسابور الطبية ، ذات الموروثات الإغريقية الهائلة ، على أحسن صورة ممكنة ، فوصلتهم هذه المدرسة بكنوز الثقافة الطبية اليونانية ، واستطاعت أن تنقل لهم عيون التراث الإغريقي في هذا المجال . يروى ابن أبي أصيبعة أن المأمون لما عزم على الخروج إلى بلد الروم كان جبريل بن بختيشوع بن جورجيس مريضا ، «فلما رآه المأمون ضعيفا التمس منه إنفاذ بختيشوع ابنه معه إلى بلد الروم ، فأحضره ، وكان مثل أبيه في الفهم والعقل والسرو . ولما خاطبه المأمون وسمع حسن جوابه فرح به فرحا شديدا وأكرمه غاية الإكرام ورفع منزلته وأخرجه معه إلى بلد الروم»<sup>(٥)</sup> . ويذكر ابن أبي أصيبعة أيضا أن بختيشوع هذا «بلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا في عصره ، وكان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش»<sup>(٦)</sup> . فضلا عن

(١) بختيشوع كلمة سريانية معناها عبد المسيح ، وهي تتكون من شقين : بخت ، بمعنى عبد ؛ ويشوع بمعنى المسيح عليه السلام . انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(٢) راجع : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤٦ ، ٥٨ .

(٣) Philip Hitti, op. Cit., P. 309.

(٤) راجع الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك العربي والاتصال الثقافي للدكتور فتحي عثمان ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ . وانظر أيضا مادة «جند يسابور» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم سايبلي .

(٥) طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

صحبة بختيشوع للمأمون فإنه خدم لدى الوثائق والمتوكل ، وتوفى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) (١) .

نخلص مما مضى إلى أن بيزنطة مثلت مصدرا مهما للتأثير اليوناني الكلاسيكي على الثقافة العربية الإسلامية في مجالات الفلسفة والمنطق والطب في عصر المأمون .

فإذا جئنا إلى مجال آخر هو مجال التأثير الديني وجدنا الأمر مختلفا غاية الاختلاف . وينبغي أن نتذكر هنا ماسبق أن قلناه من أن حكم الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) تزامن في بيزنطة مع عهود ثلاثة هي عهد الامبراطور ليو الخامس الأرميني وميخائيل الثاني وجزء من عهد ثيوفيل . ومن المعروف أن أول هؤلاء الأباطرة هو الذي بدأ المرحلة الثانية من مرحلتى الصراع اللايقوني Iconoclasm في الامبراطورية البيزنطية في سنة ٨١٥م (٢) . أما خليفته ميخائيل الثاني وثيوفيل فقد شغلا حكميهما بتطورات هذا الصراع وما أسفر عنه من أزمات داخلية طاحنة . وقد قامت الحركة الدينية اللايقونية في بيزنطة - كما هو معروف - على مقاومة الاتجاه نحو تشخيص السيد المسيح وأمه مريم البتول في أيقونات وصور وتمائيل وإضفاء القداسة الدينية على هذه الرموز التصويرية . وقد كان أول من بدأها في طورها الأول سنة ٧٢٦م هو الامبراطور ليو الثالث الأيسوري الذي نشأ في مدينة مرعش على الحدود السورية (٣) ، مما قد يدفع إلى القول بأن الحركة اللايقونية منذ بداياتها الأولى كانت واقعه تحت تأثير إسلامي واضح .

وعلى الجانب الإسلامي تبنى المأمون قضية دينية شديدة الشبه بمشكلة اللايقونية وتلك هي قضية خلق القرآن ؛ وهي المرتبطة بالمفهوم الحقيقي للتوحيد من وجهة نظر المأمون وأنصاره . لقد وقف المعتزلة إلى جانب المأمون في هذه القضية ، وكان المأمون نفسه واحدا منهم ، أى أنه كان معتزليا بالمفهوم الاصطلاحي لهذه الكلمة . ولهذا حول المأمون مذهب المعتزلة إلى مذهب رسمي للدولة وأخذ في عرض وجهات نظر هذا المذهب بكل ما تحت يده من وسائل . وتجدر الإشارة إلى أن مذهب المعتزلة تزامن في نشأته الأولى تقريبا مع

(١) راجع مادة «بختيشوع» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم بروكلمان . ج ٦ ، ص ٣٨٤ .

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P. 202 .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٩ ، ص ١٨٢ .

مذهب اللايقونية في بيزنطة ، أى في أواخر العصر الأموي<sup>(١)</sup> . أما ما يُعدُّ جديداً في الطور الحالى للاعتزال واللايقونية - أى خلال حكم المأمون - فهو الموقف الرسمى نحو هذين المذهبين . لقد كان المأمون معتزلياً صميماً كما سبق القول ، ومن هنا فإنه أخذ مسألة اعتناق الناس للقضايا الكبرى في هذا المذهب على أنها قضية إيمان واعتبر المعارضين لهذه القضايا الأساسية من وجهة نظره خارجين عن حظيرة الدين الصحيح .

وقد تبنى الأباطرة البيزنطيون المشار إليهم آنفاً - وعلى وجه أخص الامبراطور ثيوفيل - وجهة نظر شبيهة بوجهة نظر المأمون . ولقد كان ثيوفيل بالذات متشدداً في اعتناقه لمذهب اللايقونية ، ومن هنا اعتبر معارضيه الأيقونيين وثنيين يستحقون أبشع صور العقاب .

والجدير بالذكر أن قائد جناح المعارضة ضد الحركة اللايقونية في طورها الثانى كان الراهب الشهير ثيودور الاستودى Theodore the Studite (ت : ٨٢٦م) الذى تعرض للاضطهاد والنفى مرات عديدة بسبب عقيدته الراسخة في الأيقونات<sup>(٢)</sup> . أما قائد جناح المعارضة ضد المأمون فقد كان إمام الفقه الذائع الصيت أحمد بن حنبل الذى تعرض هو أيضاً لاضطهاد المأمون ثم بوجه أخص لاضطهاد خليفته المعتصم . ولقد كان يقف بجانب المأمون مفكر ومنظر معتزلى طويل الباع هو أحمد بن أبى دُواد الذى كان المصمم الحقيقى لسياسة المأمون الاعتزالية والذى عينه المأمون مستشاراً له<sup>(٣)</sup> . أما ثيوفيل فقد كان يقف بجانبه في صراعه الدينى هذا مفكر لايقونى قدير هو يوحنا النحوى John the Grammarian الذى لعب الدور الأساسى في سياسة الامبراطور اللايقونية والذى قلده الامبراطور في وقت لاحق منصب بطريرك القسطنطينية<sup>(٤)</sup> .

ولكن هناك سؤالين ينبغى طرحهما هنا : أولهما : هل كانت هناك ملامح مشتركة بين

(١) نشأ مذهب المعتزلة بصورته المحددة الملامح - كما هو معروف - على يد واصل بن عطاء المولود سنة ٨٠هـ والمتوفى سنة ١٣١هـ . راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٦ ، ص ٧ وما بعدها . ولكن ابن خلكان يذكر أن وفاته كانت في سنة ١٨١هـ ، والصحيح ما ذكرناه . وراجع فجر الإسلام لأحمد أمين ، ص ٢٩٦ .

(٢) العالم البيزنطى ، تأليف ج . م . هسى ، ترجمة د . رأفت عبد الحميد ، ص ١٣٨ .

(٣) راجع ترجمته في وفيات الأعيان ، ج ٨١ - ٩١ .

Ostrogorsky, Op. Cit., pp. 203 FF.

(٤)

المعتزلة واللاأيقونيين؟ وثانيهما : هل كان هناك أى تأثير متبادل بين المأمون وثيوفيل فى مواقفهما الدينية؟

وبخصوص السؤال الأول فإن الإجابة لابد أن تكون بالإيجاب . لقد كانت هناك ملامح مشتركة وقوية بين المعتزلة واللاأيقونيين . وأول هذه الملامح وأهمها أن كلا من الجانبين اعتمد على العقل فى تقرير بعض القضايا الدينية الأساسية . وثانى هذه الملامح - وهو مترتب على الأول - أن كلا من الجانبين رفض الأفكار والممارسات التى كان من شأنها أن تنحرف بالناس عن عبادة الله الحق من وجهة نظرهم . ومن ثم فإن كلا منهم وقف ضد تجاوزات المشاعر الدينية لدى الجماهير . لقد رفض اللاأيقونيون رفضا قاطعا تقديس الأيقونات والصور الدينية لأن ذلك التقديس من شأنه أن يحول الأيقونات والصور والرموز الدينية إلى ما يشبه الأوثان . وبالمثل رفض المعتزلة فكرة قدم القرآن لأن هذه الفكرة تعنى وجود قديم مع الله ، والله وحده هو الموصوف بالقدم . ولو اشترك معه غيره فى هذه الصفة لأدى ذلك إلى تعدد القدماء ، وهذا شرك محض . ومع أن مذهب المعتزلة قام على أصول خمسة فإن أول هذه الأصول وركنها الركين هو التوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى ، التوحيد الخالى من أية شبهة أو شائبة . وهكذا كان القول بقدم القرآن من وجهة نظرهم تهديدا حقيقيا لمبدأ التوحيد المطلق ؛ ومن هنا وقفوا ضده بكل حزم . ومن هذا يتضح أن المبادئ كانت متشابهة جدا لدى المعتزلة واللاأيقونيين ، كما كانت طرق تطبيقها والدفاع عنها على نفس الدرجة من التشابه . وثالث هذه الملامح أن المعتزلة واللاأيقونيين لم يروا أى تناقض بين مسائل الدين البحت وبين وجوه المعرفة الدنيوية الخالصة . ومن ثم فإنهم أفسحوا صدورهم لدراسة الفلسفة والمنطق والرياضيات والفنون الجميلة وغير ذلك من صنوف المعرفة . ويعُدُّ المأمون وثيوفيل خير نموذجين لذلك .

ونأتى الآن للسؤال الثانى : هل كان هناك تأثير متبادل بين الخلافة وبيزنطة فى هذه القضية الدينية؟

بالقطع لا يمكن الادعاء بأن أحد الجانبين اتخذ خطوات مباشرة ليدعم الجانب الآخر أو يؤثر عليه فى هذا الموقف الدينى المتطرف . بل إننا نرى على العكس من ذلك أن المأمون أخذ جانب توماس الصقلي فى ثورته ضد الامبراطور اللاأيقونى ميخائيل الثانى رغم أن توماس كان أيقونيا متعصبا . والذى يبدو لنا بوضوح أنه لم يكن هناك تأثير إسلامى قوى



على مجرى الصراع اللايقونى خلال حكم الامبراطور ليو الخامس وميخائيل الثانى . ولكن قد يكون من حقنا أن نزعّم أنه كان هناك تأثير إسلامى إلى درجة ما على الموقف اللايقونى للامبراطور ثيوفيل . فلا بد لنا أن نلاحظ أن ثيوفيل لم ينظر إلى اللايقونية على أنها قضية سياسية فى الأساس بل اعتبرها قضية دينية بالدرجة الأولى وحاول أن يبررها بالمنطق الدينى . ومن هنا فإنه جمع حوله كبار المفكرين اللايقونيين وعلى رأسهم يوحنا النحوى<sup>(١)</sup> . واللافت للنظر أن هذا هو ما فعله المأمون فى نفس الوقت أو قبل ذلك بقليل . ولقد كان هدف المأمون أن يغرس العقيدة الصحيحة وكان سبيله إلى ذلك أولا هو الحوار المنطقى الهادئ ، فإن لم يأت الحوار بثمرته المرجوة اتخذ القوة سبيلا إلى الإقناع . وقد كان هذا هو ما فعله ثيوفيل تقريبا . إن مما قد يدفعنا إلى الاعتقاد بأن ثيوفيل تأثر بالمأمون فى سياسته الدينية هو تلك الحقيقة التى لا يجحدها أحد وهى أن المنافسة بين هذين الحاكمين كانت على أشدها فى مجالات مختلفة . والجدير بالملاحظة حقا أن المأمون وثيوفيل يقدمان لنا مثلا لحاكمين معاصرين يمكن بمنتهى اليسر أن يقارن أحدهما بالآخر من وجوه عدة . ففى قضايا الدين لم يكتف المأمون وثيوفيل باتخاذ مواقف متشابهة بل إنهما استخدمتا وسائل متشابهة أيضا فى تأييد تلك المواقف . وفى مجال المعرفة والأنشطة الذهنية قدّم كل منهما أبرز مثال للحاكم المتفتح المثقف على مستوى تاريخ الخلافة وبيزنطة . وفى المجال العسكرى نزل كل منهما بنفسه إلى الميدان ليقود الجيوش ويحرز الانتصارات . والذى نرجحه أن ثيوفيل كان يتخذ المأمون مثلا يحاول أن يحذو حذوه فى كل المجالات الممكنة . فلا غرو إذن أن يكون فى موقفه الدينى - وعلى الأخص فى أساليب الدفاع عن هذا الموقف - متأثرا إلى حد لا ينكر بالخليفة المأمون .

إن مما يزيد هذا الافتراض تعزيزا هو ما نعرفه من التبادل بين الخلافة وبيزنطة فى عهد ثيوفيل فى مجالين آخرين من المجالات الثقافية هما مجالا الفن والمعمار . ولا حاجة بنا هنا إلى أن نؤكد أن الإسلام لا يبيح إضفاء القداسة على الصور والتماثيل ، بل إن الإسلام ينظر إلى هذه الصور والتماثيل عموما نظرة أقل ما توصف به أنها خالية من التشجيع ، وذلك لما قد يؤدى إليه استخدام هذه الصور والتماثيل من تقديس لها أو للموضوعات التى ترمز إليها ؛

(١) حول السياسة الدينية للامبراطور ثيوفيل والدور الذى لعبه يوحنا النحوى فى هذا الصدد راجع :

- A.A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp. 286 - 287 .

وهذا نوع من الوثنية يحاربه الإسلام بحسم . ومن أجل ذلك كان على الفنان المسلم أن يبحث عن مجالات أخرى للتعبير عن فنه . وقد كان الخط والرسم الهندسية من أهم المجالات التي تنبأها الفنان المسلم وأبدع فيها . ولهذا حفلت قصور الخلافة بصور رائعة من هذين الفنين الجميلين . ومما هو بعيد الدلالة هنا أن ثيوفيل على وجه الخصوص أبدى اهتمامه الشديد بتبني هذا الطراز من الفنون الجميلة في تزيين قصوره المتعددة في القسطنطينية وغيرها من مدن الامبراطورية<sup>(١)</sup> . وهذا قد يدفعنا إلى أن نستنتج أن ثيوفيل - في تنبيهه لهذا الاتجاه - كان واقعا تحت تأثير الفن الإسلامي .

## ٢ - أهم قنوات الاتصال الثقافي :

ناقشنا حتى الآن الجوانب الأساسية للاتصال الثقافي بين الخلافة وبيزنطة في عصر الخليفة المأمون . وبقي أمامنا أن ننظر في أهم القنوات التي تم عن طريقها هذا الاتصال .

ولاشك أن حركة الترجمة جاءت على رأس هذه القنوات . وهذه الحركة - كما سبقت الإشارة - بدأت قبل عصر المأمون بوقت طويل . ولكن ما أضافه المأمون إليها أنه نظمها وأعطاهها شكلا أكثر تأثيرا . وقد لعب «بيت الحكمة» في عصر المأمون دورا أساسيا في هذا المجال . ولسنا هنا في مقام يسمح لنا بالحديث المفصل عن نشأة بيت الحكمة ولا عن مؤسساته المختلفة . فهذا يخرج بنا عن دائرة هذا البحث<sup>(٢)</sup> . ولكن ما تنبغى الإشارة إليه هنا أن بيت الحكمة ضم بين أقسامه الرئيسية قسما للترجمة كانت مهمته ترجمة كل عيون التراث الإنساني إلى اللغة العربية . وقد حظى التراث اليوناني ، بمجالاته المختلفة ، بالنصيب الأكبر من اهتمام قسم الترجمة ببيت الحكمة ، وذلك بتوجيه من الخليفة نفسه . وقد

---

(١) H.W. haussig, A. History of Byzantine Civilization, P. 170 . See also, Robin Cormack, "The Arts during the Age of Iconoclasm", an article Published in, "Iconoclasm", University of Birmingham, P. 43 .

(٢) حول تاريخ إنشاء بيت الحكمة راجع هذه المادة في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم سورديل Sourdél ، ج ٨ ، ص ٤٩٨ ، ويرجع سورديل أن مكتبة بيت الحكمة أنشئت في خلافة الرشيد . ولعل ازدهار نشاط بيت الحكمة في عصر المأمون هو الذي جعل بعض الباحثين ينسب تأسيسه إلى المأمون . انظر مثلا :

- Philip Hilli, History of the Arabs, P. 410, S. Cobb, Islamic Contributions to Civilization, P. 18 .

أمد المأمون هذا القسم بهيئة دائمة من المترجمين الذين أثبتوا كفاءة في هذا المجال وتلقوا المكافآت السخية من الخليفة . ومما يروى في هذا الصدد أن شيخ المترجمين في بيت الحكمة - وهو حنين بن إسحاق<sup>(١)</sup> - كان يتقاضى من الخليفة وزن ما يترجمه ذهباً<sup>(٢)</sup> . وإذا سمحنا بوجود قدر من المبالغة في هذا الخبر فإن الذى لا جدال فيه على أى حال هو ما يشير إليه ذلك من المكانة العظيمة التى تبوأها المترجمون فى ذلك العصر . والملاحظ أن معظم هؤلاء المترجمين كانوا من أصل سريانى وكانوا يتقنون اللغات الثلاث : العربية والسريانية واليونانية<sup>(٣)</sup> . ومما يروية القفطى بصدد حديثه عن حنين بن إسحاق أنه «لزم الخليل بن أحمد حتى برع فى اللسان العربى ... وتعلم لسان اليونانية بأصله ، وكان جليلاً فى ترجمته»<sup>(٤)</sup> . والملاحظ أن مجالات الترجمة فى عصر المأمون اتسعت لتشمل كل وجوه المعرفة الإنسانية تقريباً ، مع أن الأعمال الفلسفية والعلمية حظيت بنصيب متميز من اهتمامات المترجمين .

ومن حقنا هنا أن نسأل : كيف استطاع هؤلاء المترجمون الحصول على الكتب اليونانية التى قاموا بترجمتها ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى الحديث عن قناة أخرى مباشرة من قنوات الاتصال الثقافى بين الخلافة وبيزنطة ، وهى المتمثلة فى الرحلات العلمية<sup>(٥)</sup> .

لقد سبق أن ذكرنا أن الرشيد استطاع - فى بعض غزواته ضد الروم - أن يحصل على بعض المؤلفات اليونانية التى أمر بترجمتها إلى العربية . ولكن المأمون مضى خطوة أبعد من هذه ؛ ذلك أنه أرسل البعثات المنظمة إلى بلاد الروم - ولا بد أن ذلك كان باتفاق مع السلطة الحاكمة هناك - للبحث عن المصادر المهمة والقيام بترجمتها . يقول ابن خلدون فى ذلك : «وجاء المأمون ... وكانت له فى العلم رغبة بما كان ينتحله ، فانبعث لهذه العلوم

(١) راجع ترجمته فى الفهرست لابن النديم ، ص ٢٩٤ ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، وأخبار الحكماء للقفطى ، ص ١١٧ ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

(٢) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى لجرى زيدان ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٤) أخبار الحكماء ، ص ١١٨ .

(٥) راجع الحدود الإسلامية البيزنطية لفتحى عثمان ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

حرصاً وأوفد الرسل على ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب ، وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها<sup>(١)</sup> . وحين يروى ابن أبى أصيبعة قصة الحلم الذى رأى فيه المأمون أرسطو يعلق قائلاً : «فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب ، فإن المأمون كتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلماً صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم<sup>(٢)</sup> . وليس لنا - بالطبع - أن نعتقد أن إيفاد المأمون للرسل إلى بلاد الروم لاستخراج علوم اليونانيين كان نتيجة حلم رأى فيه المأمون أرسطو ؛ بل إنه نتيجة خطة منظمة وضع أسلافه بذورها وتوسع هو فيها وسار بها إلى غايتها . ومما يروى عن حنين بن إسحاق ، الذى خصه المأمون بمزيد من الثقة فى الترجمة من اليونانية إلى العربية<sup>(٣)</sup> ، أنه «سافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب التى قصد نقلها»<sup>(٤)</sup> . وقد قامت بدور متميز فى هذا الصدد أسرة موسى بن شاكر المتمثلة فى أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن . فقد كانوا يذهبون بأنفسهم إلى بلاد الروم أو يرسلون من ينوب عنهم للبحث عن المخطوطات اليونانية هناك . وهكذا يمكن أن تتبوأ هذه الأسرة مكانة خاصة فى تاريخ العلاقات الثقافية

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٢) طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٤٣ . ويوحنا بن ماسويه المشار إليه كان من أساطين الترجمة من اليونانية إلى العربية منذ عصر هارون الرشيد حتى المتوكل . انظر ترجمته فى طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٣٧ . ولعل ملك الروم الذى يشير إليه ابن أبى أصيبعة فى الاقتباس المذكور هو ميخائيل الثانى الذى حكم من سنة ٨٢٠ إلى سنة ٨٢٩ م . فقد بعث المأمون إلى بلاد الروم «من عرب له كتب الفلاسفة وأتاه بها فى أعوام بضع عشرة سنة ومائتين من سنى الهجرة» كما يقول المقرئى ، خطط ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ . وأعوام بضع عشرة سنة ومائتين للهجرة تبدأ من سنة ٨٢٨ م . وقد كانت علاقة المأمون بثيوفيل الذى تولى الحكم بعد ميخائيل الثانى (أى من سنة ٨٢٩ م) علاقة يسودها التوتر الدائم .

(٣) مما يدل على ذلك أن المأمون لم يكتف بإسناد بعض المصادر اليونانية المهمة إلى حنين ليترجمها بل

إنه أمره بإصلاح ما يترجمه غيره . انظر : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

بين المسلمين والبيزنطيين . والجدير بالذكر أن المأمون احتضن هؤلاء الإخوة الثلاثة وتعهدهم بالرعاية والتشجيع وأخذ بأيديهم على طريق التفتح العلمى منذ نعومة أظفارهم . فقد مات أبوهم موسى بن شاعر عندما كان هؤلاء الأبناء صغارا ؛ فألحقهم المأمون ببيت الحكمة . وكانت كتبه - وهو فى بلاد الروم - ترد إلى إسحاق بن إبراهيم حاكم بغداد بأن يراعيهم ويسأل عن أخبارهم حتى قال إسحاق : « جعلنى المأمون داية لأولاد موسى بن شاعر ! » . فبلغ هؤلاء الإخوة من العلم مبلغا رفيعا بفضل رعاية المأمون لهم<sup>(١)</sup> . وقد تولى بنو موسى بن شاعر ترجمة العديد من الكتب ذات الموضوعات المتنوعة من هندسة ورياضيات وتنجيم بل وموسيقى أيضا . ومما يسترعى الانتباه أنهم استخدموا مجموعة من المترجمين برواتب مغرية . يقول ابن خلكان فى حديثه عن إسهام أولاد موسى بن شاعر فى هذا المضمار : « كانت لهم همم عالية فى تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل ، وأتعبوا أنفسهم فى شأنها ، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم ، وأحضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السنّى ، فأظهروا عجائب الحكمة،<sup>(٢)</sup> ويذكر ابن أبى أصيبعة أن بنى موسى بن شاعر كانوا يرزقون جماعة من المترجمين - منهم حنين بن إسحاق وحبش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم - فى الشهر نحو خمسمائة دينار<sup>(٣)</sup> .

هذا ؛ وقد بلغت عناية المأمون بجمع المصادر اليونانية لترجمتها مبلغا جعله لا يتوانى فى البحث عنها فى مظانها حيث كانت . وهكذا نقرأ فى بعض مصادرنا أن بعثات المأمون العلمية وصلت إلى جزيرة قبرص وصقلية ونجحت فى استخراج بعض المخطوطات اليونانية من هناك<sup>(٤)</sup> .

وإذا كانت حركة الترجمة وما ارتبط بها من الرحلات العلمية قد مثلت أهم قنوات الاحتكاك الثقافى بين الخلافة وبيزنطة فإننا لا نستطيع أن نغفل هنا قناة أخرى على قدر كبير من الأهمية وهى تلك المتمثلة فى تبادل السفراء . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك تلك البعثة المشهورة التى أرسلها ثيوفيل للمأمون فى حوالى سنة ٨٣٠م برئاسة يوحنا

(١) راجع : تاريخ التمدن الإسلامى لجرى زيدان ، ج ٣ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٥ ، ص ١٦١ . وانظر أيضا : أخبار الحكماء للقفطى ، ص ٢٠٨ .

(٣) طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ٣٧٨ . وانظر أيضا : ضحى الإسلام لأحمد أمين ، ج ٢ ، ص ٦١ .

النحوى . وقد كان الهدف الأساسى من بعثه يوحنا هو الوصول إلى اتفاقية سلام بين المأمون وثيوفيل . وتتجاهل مصادرنا العربية هذه البعثة رغم مالها من أهمية سياسية وثقافية (١) . ولا يهمننا فى هذا المقام أن نناقش الأبعاد السياسية لهذه البعثة ؛ ولكن لا ينبغي أن نتجاهل أهميتها على المستوى الثقافى . وربما جاز لنا أن ندعى أن ثيوفيل اختار يوحنا دون غيره نظراً لثقافته الواسعة ، ثم لعقيدته اللايقونية الراسخة ؛ وهى تلك العقيدة التى تتناسب مع منطلقات المأمون الإعتزالية . وأغلب الظن أن يوحنا نجح فى أن ينقل إلى ثيوفيل صورة صادقة لما رآه فى بلاط الخليفة من مظاهر الروعة ، ولعل هذه الصورة كانت وراء الحماسة الملحوظة التى أبداهها ثيوفيل تجاه الحضارة الإسلامية (٢) .

والحق أن الأمر لم يقف بالمأمون عند مجرد الترحيب بأمثال هذه البعثات بل إنه كان يطلبها بنفسه من امبراطور الروم ، وبالذات عندما يكون الغرض منها ثقافيا خالصا . ولعل أبرز مثال على ذلك هو ما حدث بين المأمون والامبراطور ثيوفيل بخصوص العالم البيزنطى الشهير ليو الرياضى : Leo the Mathematician . لقد وصلت شهرة هذا العالم الرياضى الكبير إلى بلاط المأمون ، ومن ثم أرسل خطابا شخصيا إلى ثيوفيل يسأله فيه أن يرسل ليو إلى دار الخلافة فترة قصيرة حتى يقوم بما يمكن أن نسميه الآن بمهمة الأستاذ الزائر . والجدير بالملاحظة هنا أن حرص المأمون على تحقيق هذه الرغبة وصل به إلى المدى الذى جعله يبذل استعدادا لعقد اتفاق سلام مع الامبراطورية بالإضافة إلى دفع مبلغ ضخم من المال فى حالة سماحه للعالم البيزنطى أن يقوم بهذه الزيارة (٣) . صحيح أن الامبراطور رفض تحقيق رغبة المأمون ، ولكن هذا الرفض لا يقلل من الدلالات العميقة لمحاولة المأمون هذه ؛ فهى محاولة تكشف بوضوح عن تقديره العميق للفكر والمعرفة وبذل غاية الطاقة من أجل تحصيل العلم من مصادره حيث كانت ولو فى دار الحرب .

بقى أخيرا أن نتحدث عن قناة أخرى من قنوات التبادل الثقافى قد تبدو ضئيلة الأهمية ولكنها ليست كذلك فى حقيقة الأمر ؛ وهى ما تمثله عملية تبادل الأسرى بين الجانبين ، أو ما يعرف فى مصادرنا باسم الفداء . لقد بدأت عمليات تبادل الأسرى بين المسلمين والروم

(١) See : J. B. Bury : "The Embassy of John the Grammarian", published in : English Historical Review, 24 (1909), pp . 296 - 990 .

Ostorgorsky, Op. Cit., P. 206 .

Vasiliev, Op. Cit., P. 298 .

(٢)

(٣)

بشكل منظم في العصر العباسي الأول ، وكان أولها فداء غير مشهور وقع في خلافة المنصور (١) . ثم توالى الأفدية بعد ذلك في خلافة المهدي والرشيد والأمين والواثق ومن بعدهم (٢) . ورغم أنه لم يقع فداء واحد للأسرى في خلافة المأمون فإن الأسرى الذين تم فداؤهم في خلافة أبيه وأخيه الأمين كان الكثير منهم ما يزال حيا . ومما تنبغى الإشارة إليه هنا أن بعض هؤلاء الأسرى كانوا يمكثون سنين طويلة في أرض العدو إلى أن يتم فداؤهم ، سواء أكانوا من الجانب الإسلامي أم من الجانب البيزنطي (٣) . ولم يكن من الضروري أن يمكث الأسرى في سجون العدو بل كانوا يسترقون في كثير من الأحيان إلى أن يتم فداؤهم . وهذا كان يتيح للأسرى من الجانبين أن يمتزجوا بالحياة الاجتماعية الجديدة وأن يتأثروا بمناحي ثقافتها إذا كان لديهم الاستعداد الذهني لذلك (٤) . ونحن نقرأ في هذا الصدد أن أحد الأسرى الذين أطلق سراحهم في خلافة الواثق في سنة ٢٣١هـ (٨٤٥م) - واسمه مسلم بن أبي مسلم الجرمي - كتب «مصنفا في أخبار الروم وملوكهم وبلادهم» (٥) . وقد كان مصنفه مصدرا لابن خردادبه في المسالك والممالك عندما أعد قائمته لأعمال بلاد الروم أو بنودها (٦) .



ننهى استعراضنا لحركة الاتصال الثقافي بين الخلافة وبيزنطة في عصر الخليفة المأمون بالملاحظات الأساسية التالية :

- (١) تاريخ الطبري ، ج ٧ ، ص ٥٠٠ ؛ والكامل لابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٤٨٨ .
- (٢) حول هذه الأفدية وما بعدها راجع خطط المقرئزي ، ج ٢ ، ص ١٩١ - ١٩٢ . وانظر أيضاً :  
- A. Toynbee, Constantine Porphyrogenitus and his world, pp. 388 - 890 .
- (٣) مما قد يستأنس به هنا ما يقوله شاعر الرشيد مروان بن أبي حفصة مادحا الخليفة بمناسبة فداء للأسرى وقع في سنة (١٨٩هـ - ٨٠٥م) :

وَفُكَّتْ بِكَ الْأَسْرَى الَّتِي شَدَّيْتُ لَهَا      محابس ما فيها حميم يزورها  
على حين أعيا المسلمين فكاكها      وقالوا سجون المشركين قبورها

انظر : تاريخ الطبري ، ج ٨ ، ص ٣١٨ .

- (٤) الحدود الإسلامية البيزنطية لفتح عثمان ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٥) خطط المقرئزي ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

- (٦) الحدود الإسلامية البيزنطية لفتح عثمان ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

**أولاً :** مثلَّ عصر المأمون مرحلة انتقالية في تاريخ الاتصال الثقافي بين المسلمين والروم . فقد قام المسلمون قبل هذا العصر بدور المتلقى . ولكن عصر المأمون كان بداية انتقال المسلمين من جانب المتلقى إلى جانب المعطى . صحيح أن دور الإعطاء لم يكن غالباً في تلك الفترة ، ولكنه بدأ يظهر في بعض الجوانب ليتنامى بعد ذلك حتى يصل إلى مرحلة أصبح المسلمون فيها يمثلون مصدر إشعاع حضارى فى جميع أنحاء العالم .

**ثانياً :** إن الخلافة وهى فى أوج عظمتها وعنفوانها لم تنغلق على نفسها ولم يصبها داء الغرور فتحتقر ما فى جعبة الآخرين من علم وثقافة . واللافت للنظر حقاً أن هذه الفترة بالتحديد شهدت انفتاحاً إسلامياً غير مسبوق على الثقافات الأخرى التى مثلت بيزنطة أبرزها فى ذلك الوقت . وهكذا انتعشت حركة الترجمة انتعاشاً فريداً ، ولاسيما ترجمة عيون التراث اليونانى الذى كانت بيزنطة موئله الأساسى . كما انتعش ما صاحب هذه الحركة من رحلات علمية إلى بلاد الروم للتنقيب عن المخطوطات . وقد كان من نتيجة ذلك كله أن اقتحم المسلمون مجالات جديدة فى آفاق العلم والمعرفة ، وماجت دار الخلافة بالمدارس الفلسفية والعلمية بعد أن أصبح الفكر الإنسانى متاحاً أمام الجميع ينهلون منه ما شاءوا .

**ثالثاً :** إن الاتصال الحضارى بين المسلمين والروم بدأ بظهور الإسلام ، بل كان هناك اتصال حضارى من نوع ما بين العرب والروم قبل ظهور الإسلام . وقد تدرج هذا الاتصال واتسعت دائرته فى الفترات المختلفة ، حتى جاء المأمون فاستطاع أن يستثمر ما تكون من رصيد سابق فى هذا المجال الحضارى وأن يضيف إليه الكثير بفضل ما تمتع به من خصائص ذاتية . فسارت دولة الخلافة بعد المأمون بخطى شاسعة فى ميدان الإنجازات الحضارية الشامخة .

**رابعاً :** إن الفترة التى نخصها بالمناقشة - وهى عصر المأمون - شهدت أخطر المشروعات العسكرية العباسية ضد دولة الروم . ولكن ذلك لم يصرف المأمون عن المضى فى مشروع آخر أجل خطراً من مشروعاته العسكرية وهو مشروعه الثقافى . إن هذا يلفت النظر إلى أن هناك مجالاً آخر جديراً بالدراسة فى ميدان العلاقات العباسية البيزنطية - فضلاً عن المجال العسكرى - وهو المجال الثقافى والحضارى بصفة عامة ، وهو عين المجال الذى تكمن فيه إنجازات المأمون الحقيقية .



## قائمة المصادر والمراجع

### ١ - عربية و مترجمة :

ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم):

عيون الأبناء فى طبقات الأطباء . دار الثقافة - بيروت - ١٩٨٧ م .

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم) :

الكامل فى التاريخ . دار صادر - بيروت - ١٩٨٢ م .

إحسان عباس :

الحسن البصرى . القاهرة - دار الفكر العربى - الطبعة الأولى (بدون تاريخ) .

أحمد أمين :

ضحى الإسلام . القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٣٥ م .

فجر الإسلام . القاهرة - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٩ م .

أوليرى (ديلاسى) :

مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب . ترجمة د . تمام حسان . القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٥٧ م .

بروكلمان (كارل) :

مادة «بختيشوع» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) ، ج ٦ . القاهرة - دار الشعب .

جرجى زيدان :

تاريخ التمدن الإسلامى - تعليق د . حسين مؤنس - القاهرة - دار الهلال - ١٩٦٨ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن) :

المقدمة - القاهرة - المكتبة التجارية الكبرى (بدون تاريخ) .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) :

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق د . إحسان عباس . دار  
صادر - بيروت - ١٩٧٧ م .

الرشيد بن الزبير (القاضي) :

الذخائر والتحف - تحقيق د . محمد حميد الله - الكويت - ١٩٥٩ م .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) :

تاريخ الخلفاء - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - دار الفكر  
العربي - ١٩٨٨ م .

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) :

تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة -  
دار المعارف - ١٩٧٩ م .

فتحي عثمان :

الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال  
الحضاري ، ج ٣ . القاهرة - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر  
(بدون تاريخ) .

القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف) :

إخبار العلماء بأخبار الحكماء - القاهرة - مكتبة المتنبي (بدون  
تاريخ) .

ابن كثير (أبو الفدا الحافظ) :

البداية والنهاية - تحقيق د . أحمد أبو ملحم وآخرين . دار الكتب العلمية  
- بيروت - ١٩٨٥ م .

المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على) :

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - القاهرة - بولاق -  
١٢٧٠ هـ .

ابن النديم (محمد بن اسحاق) :

كتاب الفهرست - ليبزج ١٨٧١-١٨٧٢ م .

هسّى (ج . م) :

العالم البيزنطى - ترجمة د . رأفت عبد الحميد - القاهرة - دار  
المعارف - ١٩٨٤ م .

اليقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) :

تاريخ اليقوبى - طبعة هوتسما - ليدن - ١٨٨٣ م .

- **Ali (S . Ameer) :**

A Short History of the Saracens . London, 1961 .

- **Bury (J . B) :**

The Embassy of John the Grammarian, published in : English Historical Review, 24 (1909), pp . 296 - 99 .

- **Cobb (S.) :**

Islamic Contributions to Civilization . Washington, 1965 .

- **Cormack (R.) :**

The Arts during the Age of Iconoclasm, published in : Iconoclasm, University of Birmingham, 1977 .

- **Haussig (H. W.) :**

A History of Byzantine Civilization . London, 1971 .

- **Hitti (Ph. K.) :**

History of the Arabs . London, 1970 .

- **Lemerle (P.) :**

Thomas Le Slave, published in : Trauvau et Memoires, Vol . I (1965), pp. 255 - 297 .

- **Ostrogorsky (G.) :**

History of the Byzantine State . Oxford, 1968 .

- **Runciman (S.) :**

A History of the first Bulgarian Empire . London, 1930 .

- **Toynbee (A. ) :**

Constantine Porphyrogenitus and his world . London, 1973 .

- **Vasiliev (A. A.) :**

Byzantium and Islam, published in : Byzantium, an Introduction to East Roman civilization . ed. N. H. Baynes and H. Moss . Oxford, 1948 . pp. 308 - 325 .

- **Vasiliev (A. A.) :**

History of the Byzantine Empire . Wisconsin, 1958 .